٦- عصر الطوائف

(القرن الحادى عشر الميلادى ـ الخامس الهجرى)

كانت قرطبة الأموية ـ ملتقى أجناس الشرق والغرب وموضع امتزاج بعضها ببعض ـ مركز توازن قلق[١]. وعندما انهار صرح خلافتها انتثر عقد بلادها وتفرقت أيدى سبا، وقام على أنقاضها رؤساء طوائف العرب وأمراء الجماعات البربرية وفتيان صقالبة القصور وتقاسموها فيما بينهم إمارات، وزالت مع ذلك التفرق القوة الموجهة للسياسة الأندلسية العامة، واختفى ما هو أخطر من ذلك وهو المثل الإسبانى الأعلى[٢]. وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ الأندلسى وما تَعاوره من أحداث، لرأينا أنه بينما عمل بنو أمية على تحويل الأندلس إلى قطر غربى ووُفِّقُوا فى ذلك، اجتهد ملوك الطوائف فى رد قرطبة الغربية إلى المشرق ثانية، فتحولت عواصم الأندلس إلى بغدادات صغيرة كثيرة. ولْنُضِفْ إلى ذلك أن

---

(١) يشير المؤلف بذلك إلى تقلقل مركز الإمارة الأموية الأندلسية ـ والخلافة فيما بعد ـ تقلقلاً مستمراً بسبب كثرة الفتن والثورات التى لم تدع للأمراء والخلفاء فترة من الراحة، وحكمه هنا صادق من الناحية التاريخية.

(٢) يريد المؤلف بذلك القواعد الرئيسية التى قامت عليها سياسة الأمويين فى الأندلس، وأولاها المحافظة على وحدة البلاد وجمع شعوبها ونواحيها تحت راية واحدة، وثانيتها حمايتها من كل اعتداء أجنبى، والاعتزاز باستقلالها، وثالثتها المحافظة على المالكية كمذهب رسمى للدولة والشعب وإلزام الجميع بالأخذ به، ورابعتها «التقليد الشامى» الذى ورثه المروانيون الأندلسيون عن أسلافهم فى الشام (وقد فصَّل غرسيه غومس هذه النواحى فى المحاضرات التى ألقاها فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة فى مارس وأبريل ١٩٥١م). وقد فرط الأندلسيون بعد سقوط الخلافة فى تلك المثل كلها، فعملوا على تفريق بلادهم، ولم يتورعوا عن الاستنجاد بالأجانب والخضوع لسيادتهم، وأهملوا التقليد الشامى ـ حتى دعا بعضهم للعباسيين ـ وخرج على مذهب مالك من أراد الخروج منهم.

الظروف العامة كانت قد تغيرت تغيراً حاسمًا حول الأندلس الإسلامى؛ فقد استيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوربا؛ كان ذلك عصر «السيِّد القمبيطور»[1]. ثم إن أهل المغرب فيما يلى «الزُّقَاق» نظَّموا أمورهم فى صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة، وبين نَارَى النصارى فى الشمال والبربر فى الجنوب وقف ملوك الطوائف وقد وهن أمرهم وأضعفهم الترف والبذخ، لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده، فكانت دويلاتهم أشبه بجمهوريات إيطالية فى ثياب شرقية. وسادت ذلك العصر كله روح من البذخ المسرف والإجرام السافر الذى لا يتورع عن شىء، من المطامع والنزوات إلى الخناجر والسموم. من هنا كان هذا الزمان عصراً عظيماً للشعر والشعراء، إذ تنافس ملوك الطوائف فى اجتذاب الشعراء إلى نواحيهم، وصدق الشقندى حين قال فى رسالته: «ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادى النواسم بين الرياض، وتفتك فى أموالهم فتكة البراض، حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم فى أمداحه أن حلف ألا يمدح أحدًا منهم بقصيدة إلا بمائة دينار».

وكان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه: فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير، وامتاز ابن ذى النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده فى الموسيقى، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم، وبَزَّ ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع، أما الشعر فكان أمرًا مشتركاً بينهم جميعًا يلقى منهم كل رعاية ولكن عناية بنى عبَّاد أصحاب إشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل. وفى أثناء ذلك كله كانت قرطبة النبيلة تحتضر، وكان البربر أصحاب السلطان فى جنوبى الأندلس قد عقدوا الخناصر مع اليهود. وقلَّ وفود أعلام المشارقة على

(١) إطلاق تسمية «عصر السيد» على النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فى الأندلس (وهو عصر الطوائف) اصطلاح حديث ابتدعه اللغوى المؤرخ الإسبانى المعاصر منندذ بيدال، وسمى به كتابه الذى ألفه فى تاريخ السيد القمبيطور: La Espana del Cid. ويعد اتصال إسبانيا النصرانية بغرب أوربا وانفتاح الباب بينهما فى ذلك العصر من أكبر أسباب نهضة إسبانيا النصرانية وتغلبها على المسلمين، وإلى هذا يشير المؤلف هنا.

الأندلس، وانصرف نفر من أهل الأدب إلى تصنيف مجموعات من جيد الكلام ما بين نظم ونثر، كالذى فعله أبو الوليد الحميرى (توفى حوالى سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، من تأليف كتابه «البديع فى وصف الربيع»، ومضى الناس فى نظم الموشحات، ولكن أكثر ما انصرفت إليه المَلَكات هو قرض شعر حديث على طريقة القدماء، ولدينا من ثمار قرائحهم آلاف من الأبيات؛ لقد أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء! حتى قال القزوينى إن «أى فلاح يحرث بأثوار فى شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من المعانى». ومضى الشعراء يقطعون الأندلس طولاً وعرضًا، ينتجعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصِّلات، ويحضرون مجالس أصحاب الأمر، وتُدْرَج أسماؤهم فى سجلات الدواوين، وتُقرر لهم الأرزاق وتُخلع عليهم وظائف التدريس؛ ولقد كان الواحد منهم يرتجل المقطوعة القصيرة فيبلغ بها الوزارة. ولما اشتد عليهم الطلب وتَوالَى عليهم إلحاح الأمراء رفعوا أسعار أشعارهم، حتى حلف واحد منهم ألاَّ يمدح أميراً بأقل من مائة دينار، وأدرك اليأس نفرًا منهم، فانصرفوا عن الشعر وعادوا إلى أريافهم وإلى ما كانوا يزاولونه قبل احترافهم الشعر من أعمال. وكان كبار القوم من ملوك ووزراء وأصحاب وظائف كبرى وسفراء لا يتراسلون إلا شعرًا، فكانوا يتهادون رقاعاً صغيرة تحمل عبارات الدعوات والاعتذارات والأهاجى، أو يرفقونها بهداياهم، أو يسجلون فيها لمحات من حياتهم، كلها منظومة شعرًا يشبِّهون أنفسهم فيه بالنجوم والزهور، حتى أصبحت حياتهم كلها شعرًا صِرْفاً! ومعظم هذا الشعر متكلف زائف، ولكنه يضم بين الحين والحين لمحات تصوِّر أخلد العواطف الإنسانية.

وإذا كان لابد من تصوير المحنة العامة التى شملت الشعر خلال ذلك العصر فى صورة شخص واحد من أهله، فليس أوفق لذلك من المعتمد بن عبَّاد صاحب إشبيلية (٤٦١- ٤٨٤هـ /١٠٦٨ ـ ١٠٩١م). كان أبوه المعتضد (٤٣٤ ـ ٤٦٢هـ / ١٠٤٢ ـ ١٠٦٩م) ـ صاحب الأفاعيل الشنيعة ـ وأبناؤه جميعاً، وخاصة «الراضى» الرقيق صاحب رندة، كلهم شعراء. ولكنه بَزَّهم جميعًا وفاق كل معاصريه فى ذلك المضمار، لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه: أولها أنه

كان ينظم شعرًا يثير الإعجاب، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعرًا حياً، وثالثها أنه كان راعى شعراء الأندلس أجمعين بل شعراء الغرب الإسلامى كله؛ فإلى بلاطه لجأ شعراء إفريقية وصقلية، عندما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها، وتَهدَّدوا الباقى. إن حياة المعتمد لعجيبة حقًا! كان فى صدر شبابه - أيام كان بعدُ أميرًا - عاملاً لأبيه فى شلب، وحاكماً على إقليم الجَوْف البرتغالى كله؛ وهناك طابت له الأيام فى صحبة صديقه الحميم أبى بكر بن عمَّار قسيم حياته. وعندما اعتلى عرش أبيه تلألأت الأنوار فى صفحة الوادى الكبير، وفاضت بالموسيقى جوانبُ قصوره البيضاء القائمة فى ألفاف زيتون «الشَّرَف». ثم تزوج من جارية استطاعت أن تُجيز شطرَ بيتٍ ارتجله وكان قد سأل صاحبه ابن عمَّار أن يجيزه فأرتج عليه، فأجازته هى على البديهة وهى تغسل فى النهر على مقربة من «فحص الفضة». وعندما جمحت بها إحدى نزواتها، فتمنَّتْ لو عجنت الطين برجليها، نثر لها الكافور والعنبر على الحصباء وصنع لها منهما طينًا؛ وأقام «البازى الأشهب» رئيسًا لحرسه، وكان قبل ذلك قاطع طريق بهر المعتمد بذكائه. ولقد افتتح المعتمد المدائن، ومات نفر من أبنائه بين سمعه وبصره أثناء حروبه، وقَتل بيديه أقرب أصحابه إلى نفسه، عقابًا له على خيانته إياه. وعندما ثقلت عليه وطأة ألفونسو السادس، أسرع يستنجد بيوسف المرابطى وخاض معه «وقعة الزلاقة» وخرج منها مظفرًا (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م). ولكن يوسف لم يلبث أن خانه، وانهزم المعتمد الملك الشاعر، «داود» الجديد، أمام «جالوت» الإفريقى. ونفى المعتمد فى كُبُوله إلى «أغمات» - عند سفح جبال الأطلس - وهناك ظل يندب حظه، حتى وافاه أجله فى دُورٍ اتخذت له من الطين تحت أغصان النخيل. وفى ظلال هذا الحزن الممضّ، جعل يسترجع صور قصوره الإشبيلية، وما كان يزينها من شجر الزيتون؛ وترجم بشعره كل لحظة من حياته السالفة.

وعاصر المعتمدَ ابنُ زيدون (٣٩٤ - ٤٦٣هـ / ١٠٠٣ - ١٠٧٠م)، وإن كان أسَنَّ منه بكثير؛ وهو أعظم شاعر قديم مُحدَث أنجبه الأندلس. عاش ابن زيدون أول الأمر فى قرطبة فى كنف حكومة جمهورها، وكانت قرطبة مولدَه،

وبكي بشعره علي أطلالها وخرائب مواضع أُنسها التي عبثت بها يد الزمان، ثم انتجع بعد ذلك إشبيلية وعاش في رعاية بني عبَّاد. وكان ابن زيدون قبل كل شيء شاعر الحب، ومحبوبته هى «ولاَّدة»، وكانت أميرة من صلب ملوك، ولكنها كانت امرأة رَجُلَة بالغة الظرف والأناقة، هجرته آخر الأمر فمضى يشكو آلام الهجران ومرارة انصرافها عنه في شعر لا زال العرب يجدون فى ترديده متاعاً حقيقيًا، وخاصة «نونيته» المشهورة، وذوقها قريب جداً من الذوق الغربى، وإن كانت تنقصها الألوان الباهرة التى نعرفها فى الشعر العربى، وهى تضم ـ هنا وهناك ـ أبياتًا ناصعة، كأنها المرمر الأبيض القديم؛ وهو القائل:

إذا هُوَ أهْـدَى اليَاسَمِينَ بِكفِّهِ ... أخذتُ النجومَ الزُّهرَ مِنْ راحةِ البدرِ

وله أبيات أخرى تمتزج فيها الأضواء الباهرة بالظلال السوداء القاتمة كقوله:

حالتْ لِفَقْدِكُمُ أيَّامُنَا فَغَـدَتْ ... سُودًا، وكانتْ بِكُمْ بِيضاً ليَالينا

وهكذا يختلط الأبيض والأسود أحدهما بالآخر فى هذا الشعر، كما اختلطا فى رقعة الشطرنج التى لعب ابن زيدون عليها دور حبه الخاسر.

ومن كبار شعراء ذلك العصر أبو بكر بن عمَّار الشِّلبى (توفى ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) صديق ابن عبَّاد، وكان شخصية قوية تفيض فتنةً، وحياته سلسلة من المغامرات المحزنة. كان ابن عمَّار طموحاً لا يخلو من مَسٍّ جنون، شاعرًا يفهم الجمال الفنى على أنه لفظ مونق متكلف زخرفى، خلا أبياتٍ تشذ عن ذلك الوصف قالها هاجيًا مقذعاً، وقصائد أخرى تنمُّ عن عاطفة مشبوبة صادقة.

أما أبو بكر بن اللبَّانة الدانى (توفى ٥٠٧هـ / ١١١٣م). فكان روحاً عذبة رقيقة، وكان كثير البكاء، اشتهر بإخلاصه للمعتمد بعد نكبته.

وكان أبو عبد الله محمد بن الحدَّاد (توفى ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) وزيرًا فى المريَّـة، وقد تواترت على الألسن قصائد نسيبه فى صبية نصرانية «ذهبت بلبه كل

مذهب وركب إليها أصعب مركب، فصرف نحوها وجه رضاه، وحكَّمها فى رأيه وهواه»، وكان يسمِّيها «نويرة» كناية عن اسمها ـ كما يقول ابن بسَّام[1]، ومن مُلَحِه فيها قوله:

رأيتُ جُنونى مِنْ نُويرةَ كَاسْمِهَا ... نارًا تُضِلُّ، وكلُّ نارٍ تُرْشِـــدُ

والماءُ أنتِ، ومَا يَصِحُّ لقابضٍ ... والنارُ أنتِ، وفى الحشَا تَتوقَّدُ

وكان أبو إسحاق الإلبيرى (توفى ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م) فقيهاً عنيفًا متشددًا ذا شخصية إسبرطية، دفع أهل غرناطة إلى القيام على اليهود وقَتْلِهم «بنونيته» المشهورة.

أما أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيرى المعروف «بالسميسر»، فقد امتاز بالسُّخْر اللاذع من بين معاصريه من الشعراء. وكان بنو القبطورنه ـ أبو محمد طلحة، وأبو بكر عبد العزيز، وأبو الحسن على ـ ينشدون بشعرهم العذب ألحانًا أسْتْراما دورية[2] خالصة، تتردد فى أبياتهم نفحات من الأبيقورية الحزينة.

ومن نابهى شعراء العصر كذلك أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسىّ (توفى ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م)، وكان شاعر بلاط مصقولاً لبقاً متحررًا من الأوضاع، «وكان كلفًا بالغلمان، مكسفًا بين الخوف والأمان، فإن الانفراد بهم كان عليه محجورًا، وكان من أجلهم ممقوتًا ومهجورًا، فإنه اشتهر فى حبهم أشد اشتهار، واستظهر على كلفه بهم بالشظف والاقتتار»[3]؛ وابن صاره الشنترينى (توفى ٥١٧هـ / ١١٢٣م)، صاحب التشبيهات والاستعارات البعيدة المطارح،

(١) ابن بسام: «الذخيرة»، قسم ١، جـ١، ص ٢٠١، ٢٠٢.

(٢) نسبة إلى إقليم Estramadura فى الأندلس، وهو المنطقة الواقعة بين الوادى الكبير من أحواز إشبيلية إلى ماردة وبطليوس، وكانت تسمى أيام المسلمين بالشرف أو شرف إشبيلية. وهو إقليم شديد الجفاف، ومن هنا اسمه Extrema-dura وهو مشهور فى إسبانيا بجوه القاتم الحزين، ومن هنا كانت أنغام موسيقاه الخاصة الحزينة، وإلى هذا يشير المؤلف هنا.

(٣) ابن خاقان: «قلائد العقيان»، ص ٢٨٠.

الذى «أعان على نفسه الزمان، واستجلب لها الخمول والحرمان»، وهو القائل فى حرفة الأدب:

أمَّا الوِرَاقةُ فَهْىَ أنكدُ حرْفَة ... أَغْصَانُهَا وثمـارُها الحرْمَـانُ
شبَّهتُ صَاحِبَهَا كإبرةِ خَائطٍ ... تَكْسُو العُراةَ وجِسمُها عُريانُ[1]

ومضى يتعزى عن الخمول والحرمان بوصف النار والكوانين، وله فيها شعر كثير جيد كقوله:

لابنة الزّند فى الكوانين جمرٌ ... كالدَّرارى فى دُجَى الظَّلمـاء
خبِّرونى عَنْهَا ولاَ تَكْذبونى ... أَلَدَيْهَـا صنـاعةُ الكيـمياء؟
سَبَكتْ فَحْمَها صَفائحَ تبْر ... رَصَّعتْهَـا بالفضَّـة البيضـاء
كلمَّا رفرفَ النسيمُ عَليهَا ... رقصتْ فى غُـلالةٍ حمـراء
لو تَرانا منْ حَولها قلتَ شَربٌ ... يتعاطـونَ أكـؤسَ الصَّهبـاء
سَفَرتْ فى عَشائها فأَرتْنَـا ... حاجبَ الشمسِ طالعًا بالعَشاء[2]

ومنهم ـ كذلك ـ أبو عبد الله محمد بن شرف البرجى (توفى فى عام ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م) ذو النزعة الفلسفية.

ومن ذا الذى يستطيع إحصاء مئات الشعراء الآخرين الذين يندرجون فى طبقات تلى طبقات من ذكرنا؟ بحسبنا أن نشير هنا إلى أسماء بعضهم، وهم: عبادة بن ماء السماء، وأبو الحسن على بن حصن، ومحمد بن عبد الملك بن القوطية، وأبو الوليد حسان بن المصيصى، وابن المِلْح[3]، وابن جاخ الصباغ الإشبيلى، وأبو عبد الرحمن بن البين، وأبو زيد عبد الرحمن بن مُقَانَا،

---

(١) الفتح بن خاقان: «قلائد العقيان»، ص ٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٠٦. وقد أورد بعض هذه الأبيات ابن سعيد فى «الرايات» ص ٣٦، مع خلاف بسيط فى الألفاظ.

(٣) هناك أخوان شاعران يحملان هذه التسمية، هما أبو القاسم أحمد بن محمد بن الملح، وأبو بكر محمد بن محمد بن الملح.

obeikandl.com

وأبو الحسن القرشي الأشبوني، والأسعد بن إبراهيم بن بِلَّيطَة، وعبد العزيز بن خيرة المعروف «بالمنفَتِل»، والحَجَّام، ويحيى الجزار، وأبو جعفر بن البَتِّي، وأبو الوليد النَّخْلي، وإدريس بن اليَمَان، وغيرهم كثيرون جداً.

وإن الأذن لتسمع في هذا الحشد الحافل من المنشدين كل لون من الأصوات: أصوات الفقهاء العنيفة التي تستثير في النفس نيران العصبية الدينية، وأصوات السُّخْر اللاذع الملتوى المسموم يتردد فيها الكَلِمُ المهذَّب المصقول الرقيق، ودعوات الإخوان إلى انتهاب المسرَّات وقد غفلت صروف الزمان، والخمريات، والزهريات والنساء، والأعياد، والمدائح الزائفة الخاوية، ونداءات القتال، والتحسُّر على استحالة منازلة عوادي الأيام، ومدائح، ونفثات مهذَّبة، وغزليات، ومراث. وإن بعض شعراء هذا العصر ليتحدثون، وكأنهم يُنمُّون في قريضهم عن بَيْرونية جاءت قبل أوانها، وتبدر منهم بدوات دُونْخُوَانية[1] مريرة لا توقرُّ شيئاً.

إن ذلك القرن الحادي عشر الأندلسي لعالمٌ عجيب مندفع الحركة: عصر كانت الغاسلات فيه ينتقلن من ضفة النهر إلى العروش، وكان الملوك فيه يُنزعون عن عروشهم ويُسلَّمون إلى أنياب المنيَّة، أو يُلقَى بهم في ظلامات المنفى! إن شارته الغالبة عليه هي الانهيار. ولقد عبَّر عن ذلك أصدق تعبير: المعتصم بن صمادح - أمير المرية (٤٤٣ - ٤٨٤هـ/ ١٠٥١ - ١٠٩١م) الذي يبدو لنا وكأنه صورة المعتمد الباهتة - فقد رقد في سريره يحتضر، واقتحم المرابطون قصره، واقتربوا من حجرته يريدون أن يتعجلوا موته، فقال: «نُغَّصَ علينا كل شيء.. حتى الموت».

* * *

(١) نسبة إلى «دون خوان Don Juan» بطل الأقاصيص الغرامية المعروف، وهو إسباني كما ينم عنه اسمه.